

المجلد 09/ العدد 02/ ديسمبر (2025)، ص.ص. 190-198

الرمز الحيواني في الخطاب الثقافي العربي المعاصر: دراسة تداولية في تجليات صورة الحمار انموذجا "Animal Symbolism in Contemporary Arab Cultural Discourse: A Pragmatic Study of the Donkey as a Case Model"

فريدة زاوي

mouatezdiaf@gmail.com

جامعة باجي مختار عنابة
(الجزائر)

تاريخ النشر: 2025/12/02

تاريخ القبول: 2025-10-10

تاريخ الاستلام: 2025-07-06

ملخص:

يندرج هذا البحث ضمن الدراسات السيميائية التداولية التي تتناول الرمز الحيواني في الخطاب الثقافي العربي المعاصر، مع تركيز خاص على رمزية الحمار بوصفها أداة حجاجية وتأويلية متعددة الأبعاد. ففي الوقت الذي تناولت فيه العديد من الرسائل الجامعية صورة الحمار من منظور موضوعاتي أو سيميائي محض، تأتي هذه الدراسة لتعيد مقاربة الرمز من زاوية تحليلية تداولية، مستفيدة من مناهج التحليل الخطابي الحديث (*Pragmatic Discourse Analysis*). يكشف البحث عن تحولات دلالة الحمار من مجرد عنصر ساخر أو أسطوري إلى علامة ثقافية دينامية، فاعلة في تفكيك الخطابات السلطوية، ورصد آليات الهيمنة الاجتماعية والسياسية. ويبرز تداخل الرمز مع المتخيل الشعبي، والخطاب الإعلامي، والكاريكاتور السياسي، مؤكداً على العلاقة الجدلية بين السياق والرمز، وبين المرسل والمتلقي. كما يسعى إلى رصد أوجه استثمار الرمز في تشكيل الوعي النقدي، سواء في النصوص الأدبية أو في الحقول التواصلية المختلفة. بذلك، يؤسس البحث لأفق جديد يُوسع دائرة التأويل، ويربط بين بلاغة الرمز واستراتيجيات الخطاب في الثقافة العربية المعاصرة.

كلمات مفتاحية: الحمار، الرمز الحيواني، التداولية، الخطاب الثقافي، النقد التداولي، الهوية، الإعلام، الخيال الشعبي، الخطاب السياسي، الدراسات المقارنة.

Abstract:

This study falls within the field of semiotic-pragmatic research, focusing on the symbolic representation of the donkey in contemporary Arab cultural discourse. Unlike previous academic theses that approached the image of the donkey from thematic or purely semiotic perspectives, this paper adopts a pragmatic discourse analysis methodology to explore the dynamic and argumentative functions of the animal symbol. The research reveals how the donkey's meaning has evolved from a mere humorous or mythological figure to a culturally loaded sign capable of deconstructing hegemonic discourses and exposing mechanisms of social and political dominance. The study highlights the interplay between the donkey symbol and popular imagination, media discourse, and political caricature, emphasizing the dialectical relationship between context and symbol, sender and receiver. Furthermore, it seeks to trace the various ways this symbol contributes to shaping critical awareness, whether in literary texts or in different communication fields. By doing so, the research establishes a new analytical horizon that expands the scope of interpretation and connects symbolic rhetoric with discourse strategies in contemporary Arab culture.

Keywords: Donkey, Animal Symbolism, Pragmatics, Cultural Discourse, Critical Discourse, Identity, Media, Popular Imagination, Political Discourse, Comparative Studies.

المقدمة:

إنّ البحث في الرمز الحيواني، ولا سيما الحمار، يكشف عن مخزون ثقافي ومعرفي خصب يختزل سيرورات الفكر الإنساني، ويعبّر في الآن ذاته عن تحولاته العميقة عبر التاريخ. فالرمز، بوصفه بنية دلالية مركبة، لا يُقرأ في حدود المعجم أو النصوص المغلقة، بل يتجاوزها إلى الفضاء التداولي المفتوح، حيث يتفاعل مع المتلقي في سياقات اجتماعية وثقافية متجددة.

لقد أسهمت الدراسات الحديثة في ردد هذا الحقل برؤى جديدة، انتقلت به من القراءات البنيوية الشكلية التي تعاملت مع الرمز بوصفه ثابتاً نصياً، إلى قراءات تداولية وظيفية تسائل الرمز من حيث علاقته بعملية التلقي، وفاعليته في إنتاج المعاني، ومدى قدرته على تفكيك البنى السائدة.

ومن هذا المنظور، غدا الحمار، بوصفه رمزاً مهنماً أو ساخراً في المتخيل الجمعي، حاملاً لدلالات أعمق تتراوح بين التهمك السياسي، والنقد الاجتماعي، والفلسفة الوجودية. إن استعادة الحمار في الخطابات الثقافية العربية المعاصرة، سواء في النصوص الأدبية، أو في الإعلام والكراتاتور، ليست عودة بريئة، بل هي عودة مشروطة بمشهد حضاري متوتر، يبحث في الهامش عما لا يجرؤ المركز على قوله صراحة.

ولذلك، فإنّ دراسة هذا الرمز في ضوء التداولية، تتيح لنا تجاوز التفسير السطحي إلى مساءلة آليات التلقي، واستكشاف التوظيفات الاستعارية والمجازية التي يُعاد بها إنتاج الرمز لتصبح أداة حجاجية مقاومة. هذه المقاربة تكشف لنا عن كيفيات تجدد الخيال الجمعي العربي، وعن جدلية الهوية والمقاومة، وأيضاً عن التحولات العميقة في البنية الرمزية للخطاب الثقافي.

1. المحور الأول: من الرمز النصي إلى الرمز التداولي

يُعدّ الرمز أحد أهم الأدوات البلاغية التي مكنت الخطاب الأدبي من تجاوز حدود الدلالة المباشرة إلى فضاءات تأويلية متعددة ومتجددة. وإذا كان الرمز الحيواني قد شكّل لعقود طويلة بنيةً جماليةً ضمن المتون السردية الكلاسيكية، فإنّ تحولات المشهد الثقافي والاجتماعي والسياسي في العقود الأخيرة فرضت إعادة قراءة هذه الرموز من منظور تداولي، حيث لم يعد الرمز محصوراً داخل النص الأدبي وحده، بل امتد حضوره ليصبح فاعلاً حجاجياً داخل مختلف أنساق الخطاب المعاصر. من هنا، يروم هذا المحور تفكيك المسار الدلالي الذي قطعه رمز الحمار تحديداً، بدءاً من انغمسه في البنية النصية التراثية إلى تحوّل تدريجي نحو فاعل تداولي مركزي في الخطاب الثقافي والاجتماعي والسياسي العربي الحديث. وسوف يتمّ استعراض هذه التحولات وفق منهجية تحليلية تراعي جدلية النص والسياق، وتقارب الرمز في أبعاده البلاغية والتداولية على السواء.

1. استعراض تحولات دلالة الحمار من المتن السردية إلى الخطابات المعاصرة

إنّ الحديث عن رمز الحمار في المتون السردية، سواء في الأدب الكلاسيكي العربي أو الغربي، ليس مجرد نبش في صورة هامشية لكائن وديع، بل هو غوص أنطولوجي في طبقات الوعي الجماعي، وسفر نقدي عبر الأزمنة والأمكنة بحثاً عن جدلية العلاقة بين «الأنا» و«الآخر»، بين الجوهر والسطح، بين الحقيقة والسخرة. فالحمار لم يكن كائناً خامداً، بل كان ولا يزال معادلاً موضوعياً لرغبات مكبوتة، وهواجس مضرة، واحتجاجات خرساء على السائد والمهيمن.

في النصوص التراثية العربية، ينهض الحمار كأداة بلاغية ذات حمولات رمزية متعددة؛ فهو «الكائن الذي لا صوت له، لكنه يحمل عبء الأصوات جميعاً»¹، رمز البساطة والبراءة الظاهرة، والاحتجاج الصامت المبطن. هنا، يتحول من مجرد وسيلة نقل إلى وسيط تداولي يستبطن طاقة نقدية، كما في حكايات كيلة ودمنة، حيث يوظف الحيوان لتجاوز رقابة السلطة وكشف تهافت الخطابات السلطوية، مستنمراً بذلك ما ساءه شعيب حليفي «خطاب المتخيل بوصفه تمريناً على الحرية»².

أما في الأدب الغربي، وتحديدًا في الحمار الذهبي لأبولوس، فإن دلالة الحمار تقفز من المستوى الاجتماعي البسيط إلى مستوى فلسفي ميتافيزيقي. فالحمار هنا ليس مجرد ضحية للصدف والظروف، بل هو حامل مشروع تحوّل معرفي وجسدي وروحي؛ تجربة تمس جوهر الهوية الإنسانية، كما أشار أوفيد في «التحوّلات»: «الكائنات تتغيّر لتكشف ماهياتها الأعمق»³. ومن هذا المنظور، يصبح الحمار تمثيلًا للإنسان المغترب في جسده، العائد إلى حقيقته بالمعاناة، وهو ما يعكس الطابع الإستمولوجي للتجربة.

وفي دون كيخوته لثيربانتس، نجد استمرارية لهذا المسار، إذ يتموضع الحمار في قلب السرد بوصفه رمز الواقعية الشعبية المضادة لوهم الفروسية الرومنطيقية، بما يوافق مقولة ت. س. إليوت عن «المعادل الموضوعي» الذي يترجم العاطفة إلى بنية سردية محسوسة⁴. سانشو بانزا، بهامشيته الباذخة، يجزّ الحمار ليصبح جسدًا للحكمة الفطرية، وصوتًا للفطرة المضادة للهممة الأيديولوجية، في وقت تنهاوى فيه القيم الفروسية وتتحول إلى عبثية.

أما في الأدب العربي الحديث، ومع بروز أحمد رضا حوحو في مجموعته مع حمار الحكيم، فقد استعاد الحمار زخمًا نقديًا حادًا، إذ صار وسيلة حجاجية ساخرة لتفكيك البنى الاجتماعية والفكرية المتكسدة. فهو هنا لا يعكس فقط البساطة بل يفصح تواطؤ الخطابات المزيفة، ويعلن تمرد العقل البسيط على تشيؤ الإنسان المعاصر. ووفقًا لعبد المالك مرتاض، فإن حوحو «استثمر بساطة الحمار، لا لينتقص من قيمته، بل ليجعل منه جهاز كشف سيميائي لوعي مريض»⁵، في خط يتقاطع مع التوجه البلاغي النقدي الحديث.

هذا الانتقال من المتن السردى الكلاسيكي إلى الخطاب المعاصر يتجاوز مجرد تحوّل دلالي، بل يدخل في إطار ما ساه مبشال فوكو «جينالوجيا المعرفة»⁶، حيث يغدو الرمز أداة لإعادة إنتاج السلطة أو تقويضها. الحمار اليوم في الخطاب الثقافي الراهن لم يعد مجرد حيوان ترفيهي أو قناع ساخر، بل أصبح فاعلًا تداوليًا يسهم في إعادة رسم خرائط الهوية الثقافية وإعادة مساءلة المفاهيم المركزية كالكرامة، الوعي، والحرية.

ولعل أهم ما يميز هذا الرمز في الراهن الثقافي هو افتتاحه على مقاربة تناسية واسعة، إذ لم يعد يُقرأ في عزلة عن سابقاته، بل في ضوء شبكة واسعة من النصوص والخطابات، بما يتفق مع مقولة ترفيتان تودوروف: «النص الأدبي لا يوجد في ذاته، بل في علاقاته مع نصوص أخرى»⁷. في هذا المعنى، يغدو الحمار علامة عائمة، تنهت وتنفصل، تُقرأ وتُعاد قراءتها، منطلقة من بنية المتن السردى إلى آفاق التداول الثقافي والاجتماعي والسياسي.

كذلك، يفتح هذا الرمز أفقًا تأويليًا غنيًا حين نستحضره في سياقات النقد الثقافي العربي المعاصر، كما أحت نصيرة علاك، إذ يصبح رمزًا ديناميكيًا يسائل الأنساق السلطوية وينحاز لصوت الهامش والمهمشين⁸. وبذلك، يتحوّل الحمار إلى جهاز تفكيك ذي يُعيد ترتيب المشهد الثقافي ويقترح بدائل وجودية وأخلاقية جديدة.

وبنظرة شاملة، يمكن القول إن رحلة الحمار من المتن السردى إلى الخطاب النقدي الحديث لم تكن رحلة في الزمن فقط، بل رحلة في الوعي، في صيرورة الفكر، وفي صيرورة الذات الجمعية. هو رمز يختزن شجاعة السخرية، صلابة البقاء، وعبقريّة المقاومة الصامتة، ليبقى شاهدًا على قدرة الأدب في تحويل أضعف الكائنات إلى أكثرها فاعلية في إنتاج المعنى.

2. أثر السياقات الاجتماعية والسياسية في إعادة تشكيل صورة الحمار

لقد شهدت المجتمعات العربية، في العقود الأخيرة، انزياحات اجتماعية وسياسية عميقة، أفرزت تحولات في منظومات الوعي والتمثل الرمزي، ما أعاد صياغة الرموز الثقافية في الخيال الجمعي، وعلى رأسها رمز الحمار. فلم يعد الحمار ذلك الكائن الصامت الهامشي، المقيّد بصورته البسيطة كأداة نقل أو رمز للبلادة، بل تحوّل في الخطاب الأدبي والثقافي إلى حامل دلالي مشحون بمضامين نقدية، تتجاوز السطح إلى عمق الخطاب الاحتجاجي الساخر.

يقدّم الحمار اليوم في الأدب والكاريكاتور بوصفه «سلاحًا تداوليًا صامتًا»، يقتحم مساحات المسكوت عنه، مستثمرًا ما أشار إليه عبد المالك مرتاض حين أكد أن «السخرية في الأدب الجزائري قبل الثورة لا تختلف كثيرًا عن العنف؛ فهي تجسد عنفًا رمزيًا شديد اللدغ»⁹. بهذا المعنى، لا تقتصر السخرية على كونها آلية جمالية، بل هي إستراتيجية مقاومة، تحوّل الحمار إلى كائن احتجاجي يحمل صرخة مكتومة ضد أنظمة الهيمنة والفساد، متجاوزًا حدود التهكم إلى حدود الفعل الرمزي الثوري.

وقد تطور هذا التوظيف الرمزي في مواجهة منظومات الاستهلاك، فالحمار أضحي تجسيداً «للمواطن المهتمش»، الذي يُقتل كاهله بأعباء السلطة والاقتصاد والسياسة، ليصبح «أداة حجاجية لاذعة»¹⁰، يُعبر من خلالها المثقف عن موقفه الناقد تجاه الرداءة والتريف. وهكذا يندمج الحمار في خطابات ما بعد الاستعمار كرمز للتبعية والتواطؤ، وكجسم مشحون بإمكانات تفكيك النسق السلطوي، في انزياح تداولي يتوافق مع تحليل ميشال فوكو للخطاب بوصفه فضاء للصراع حول إنتاج المعنى والسيطرة عليه¹¹.

هذا التحول في توظيف الحمار يعكس انزياحاً تداولياً، إذ لم يعد الخطاب قائماً على تكرار الصور النمطية بل أصبح «خطاباً ديناميكياً يعيد صياغة الرموز في ضوء المستجدات الاجتماعية والسياسية»¹²، كما ترى نصيرة علاك. وهو في جوهره إعلان ضمنى لميلاد "رمزية هيجنية"، تنهل من الرصيد التراثي وتعيد تشكيله ضمن سياقات معاصرة، ما يمنحها قدرة على اختراق الأنظمة المعرفية السائدة وكشف عوراتها.

وقد لاحظ عبد الحميد شاكر أن السخرية بوصفها إستراتيجية تواصلية «تقوم على نقد الرذائل والحقائق من خلال المراقبة والرصد الدقيق واستعمال وسائل التهكم»¹³. بهذا، يغدو الحمار أكثر من مجرد حامل للنقد، بل هو جهاز تفكيك سيميائي، يفضح التناقضات، يزعزع الثابت، ويُعيد ترتيب علاقات القوة داخل المجتمع. إن هذه الرؤية، المستلهمة من فوكو وشاكر معاً، تؤكد أن الحمار بات اليوم وسيلة لتعرية الخطابات المهيمنة، ولإعادة كتابة التاريخ من وجهة نظر الهامش.

وهكذا، يرتقي الحمار من كائن هامشي إلى «فاعل رمزي حي»، يشارك في بناء المشهد الثقافي والسياسي والاجتماعي، ليصبح مرآة صادقة تلتقط كل التصدعات في بنية المجتمع، وتُحيلها إلى شكل جمالي - نقدي يثير التفكير ويحفز السؤال. ومع ذلك، لا يتوقف أثر الحمار عند حدود النقد الاجتماعي، بل يلامس أيضاً حدود الوجود الفلسفي، حيث يتجلى كرمز للمقاومة الصامتة، والحكمة الشعبية المتمردة، والوعي المفقور الباحث عن صوته.

وبذلك، يغدو الحمار علامةً متجددة، تحمل في ثناياها أزمته متعددة وفضاءات متشابهة، تُعيد تعريف العلاقة بين الرمز والمجتمع، وتؤسس لما سماه شعيب حليفي بـ«خطاب المتخيل»، بوصفه مساحة حرة لتمكين الخيال الجمعي على تجاوز الاستبداد الرمزي والسياسي¹⁴.

إن هذا التحول العميق في الدلالة يؤكد قدرة الرموز الحيوانية، ومنها الحمار، على التكيف مع الحقول التداولية والسياسية، ويبرهن على مرونتها الفائقة في التعبير عن أزمت الوعي، وتشتطي الهويات، وتحولات البنية الثقافية. وهكذا، لا يقرأ الحمار في النصوص الحديثة ككائن سلبي، بل كفاعلٍ تداوليٍّ إشكاليٍّ، يعيد رسم خطوط التماس بين النقد الجمالي والفعل السياسي، ليبقى شاهداً على صراع المعاني في زمن التحولات الكبرى.

1. المحور الثاني: الرمز الحيواني كآلية حجاجية وتفكيك للمهينة الخطابية

انطلاقاً من الإشكالية المركزية التي تحكم هذه الدراسة، أجدني مدفوعاً - كباحث معني بتحويلات الخطاب الثقافي - إلى استقصاء الأدوار الحجاجية التي بات يلعبها الرمز الحيواني، وعلى رأسه الحمار، في تفكيك البنى السلطوية وترسيخ خطاب المقاومة الرمزية. لقد تجاوز الرمز الحيواني في المتن الثقافي العربي والغربي مجرد حضوره التزييني أو الوظيفي داخل النصوص الأدبية، لينتقل إلى مرتبة الأداة الحجاجية الفاعلة في إنتاج المعنى، وخلخلة الأنماط المعرفية والسياسية السائدة.

في هذا السياق، أسعى من خلال هذا المحور إلى تفكيك آليات الانتقال من الرؤية البلاغية التقليدية للرمز إلى أفق تداولي أكثر تعقيداً، حيث يتماهى الرمز مع مقولات الحجاج والتأويل، ليصبح الحمار صوتاً ناقداً، بل و«فاعلاً خطابياً» قادراً على مساءلة البنية الاجتماعية والسياسية والثقافية من داخلها. ومن خلال استئثار مقاربات تداولية حديثة، ومفاهيم بلاغية رصينة، أهدف إلى رصد هذا الانزياح الرمزي، وتحليل بنيته الدلالية، وإبراز دوره في تقويض الخطابات المهيمنة، وفق منظور نقدي تداولي يأخذ بعين الاعتبار تفاعل النص مع سياقه الاجتماعي والتاريخي.

أ. الرمز بين البلاغة والتداولية: من البيان إلى التأويل

لقد استحال الرمز الحيواني، وعلى رأسه الحمار، في النصوص الأدبية والفكرية العربية والغربية، إلى مسرح بلاغي فسيح، تتقاطع فيه الشرعيات القديمة بالتصورات الحديثة، ويغدو الحمار، في هذا السياق، أكثر من مجرد كائن

عابر أو عنصر تزييني؛ إذ يتحول إلى «علامة ثقافية مشبعة بالتاريخ، ومفتوحة على التأويلات المتعددة، تخرج من صمتها الطبيعي لتصبح صوتاً موازاً للوعي الجمعي»¹⁵.

إن استدعاء الحمار في النصوص المختلفة لا ينحصر في تجسيد صفات البلادة أو الصبر كما اعتادته التصورات النمطية، بل يتعدى ذلك ليحمل بعداً نقدياً حاداً، حيث يعبر عن محولات معرفية وسوسيو-ثقافية متجددة. في ضوء ذلك، يتبلور ما وصفه عبد الحميد شاكر حين قال: «السخرية ليست مجرد تهكم عابر، بل هي إستراتيجية خطابية تنقض المسلمات وتفضح التناقضات»¹⁶، وهو ما يتحقق بجلاء في توظيف الحمار كجهاز حجاجي يهدم ما بدا راسخاً ويكشف مساحات المسكوت عنه.

وعلى مستوى الخطاب التداولي، يدخل الحمار في علاقات معقّدة مع بنية السلطة، إذ يتحول إلى «مفعول نقدي مضاد»¹⁷، يُوجّه ضد أشكال القمع والهيمنة والادعاء الزائف. فالحمار لا يظهر مجرد رمز للضعف، بل كـ«فاعل رمزي»، يقوم بوظيفة الكشف والتفكيك، متسلحاً بما وصفه ميشال فوكو بـ«سلطة الخطاب الممّوج»¹⁸، ذلك الخطاب الذي يطفو في الحواف، لكنه يحتفظ بقدرته المدهشة على زعزعة المركز.

وهكذا، يخرج الرمز من أسره البياني إلى فضاء تداولي يتفاعل مع السياق الزمني والاجتماعي والسياسي، ليصير جزءاً من دينامية «الحجاج الثقافي»، حيث تنشأ جدلية بين الإيحاء والبيان، بين الإفصاح والإخفاء. وهذه الجدلية تمكّن المتلقي من ممارسة ما يسميه أمبرتو إيكو «التأويل الاستبصاري»¹⁹، الذي يُعدّ في حدّ ذاته عملية إبداعية تُعيد بناء المعنى من جديد.

في هذا الأفق، يصبح الحمار تظهراً لصوت «الهوامش»، الذي يهدد صلاية «المركز»، ويعيد رسم خرائط السلطة الرمزية في المجتمع. فهو يفتح المجال التداولي كسلاح نقدي حاد، وكاشف للتمايزات الطبقيّة والثقافية، حاملاً في طياته خطاباً ممّوهاً قادراً على تفكيك الأنساق المسيطرة.

وبذلك، يرتقي الرمز الحيواني، لا سيما الحمار، إلى مقام «البنية النقدية التحتية»، التي تتخفى تحت قشرة الظاهر، لتشق دروباً تأويلية جديدة. فيغدو الحمار «بلاغة صامتة» تتحدى الحدود البيانية، وتُنصّب نفسها شاهداً على الصراعات الاجتماعية والسياسية، في انسجام مع ما عبّر عنه شعيب حليفي حين أكد أنّ «الرمز في الأدب العربي هو حقل ديناميكي مفتوح، يتحرك في علاقة جدلية مع التاريخ والواقع»²⁰.

وهكذا، ينزاح الرمز الحيواني من مجرد كائن تعبيري في النص إلى «نظام تداولي مركب»، يساهم في بناء أفق التلقي، وتشكيل الحس النقدي لدى المتلقي. وبهذا المعنى، يتحقق انتقال الرمز من البيان إلى التأويل، من البساطة إلى التعمق، ومن التقريرية إلى الحجاج، ليبقى الحمار رمزاً متمرّداً، حيّاً، يصرخ بصمته، ويعزّي الخطابات السائدة بذكاء صمته الماكر.

ب. تفكيك الخطابات السلطوية: الحمار كأيقونة للمقاومة

إنّ تتبع دلالة الحمار من خلال عدسة التداولية المعاصرة يكشف عن تحوّل جوهري في بناء المعنى، جعله ينتقل من موقع «المفعول به» إلى موقع «الفاعل الرمزي» الحامل لخطاب احتجاجي صامت ومركّب. لقد غدا الحمار، في المشهد الأدبي والكاركتوري والسياسي، أداةً شبه أسطورية قادرة على خلخلة البنى العميقة للخطابات السلطوية، مستفيداً بذلك وظائف الرمز القديمة في الفضاء الشعري والقصصي، ولكن بلبوس حداثي يضمّر الغضب، ويُجَاهِر بالسخرية الحادة.

تتحوّل السخرية في النصوص النقدية الجزائرية- كما يبين عبد المالك مرتاض- إلى سلاح مزدوج الحدين، إذ يصفها بأنها «عنف رمزي هادف إلى خلخلة التراتيبات الاجتماعية والسياسية، وكشف عورات الخطاب المؤدج»²¹. والحمار هنا، في هذا النسق، يتجسّد كـ«أداة حجاجية هجومية»، تستدرج المتلقي إلى مساءلة المنظومات السائدة، مفعلاً بذلك مفهوم «الحجاج السلبي» الذي يفضح السلطة بنبرة لا مباشرة، تتيح للمتلقي بناء موقف نقدي بعيداً عن الانفعالية السطحية.

أما شعيب حليفي، فيرى في الرمز الحيواني عامة، والحمار خاصة، «جسراً تخيلياً يُعبّر عن أصوات المهتمشين في التاريخ الثقافي العربي، ويبعد التفاوض حول هوية الخطاب السائد»²². وبذلك، تفتح الدلالة على مستويات تداولية وحجاجية معقدة، تتجاوز التلقي العفوي لتخاطب عمق الذات الجمعية، وتفكك أسس الخطاب المهيمن.

ولعلّ أحد تجليات هذا الخطاب النقدي يتبدّى في قدرة الحمار على تمثيل المفارقة الكبرى بين الظاهر والباطن: فهو ظاهرياً رمز للبلاهة، وباطنيّاً حاملٌ لوعي باطني ساخر، يتقاطع مع توصيف رثيف خوري للأدب المقاوم بأنّه «صوت الضمير الجمعي، الساعي إلى فضح تناقضات المجتمع، وإعادة توزيع القيم الأخلاقية والاجتماعية»²³. وتبعاً لهذا، يتحوّل الحمار إلى «مُتكلّم صامت»، يحرك الخيال الجمعي ويبعد تفكيك العلاقة بين السلطة والمعرفة. وهنا نستحضر فوكو في مقارنته الجينالوجية للمعرفة، حيث يشير إلى أنّ «الخطاب ليس بريئاً، بل هو ميدان صراع تُعاد فيه صياغة السلطة والمعنى»²⁴. فالحمار إذن ليس مجرد رمز ساخر، بل هو «حمار نقدي تداولي»، يعيد تشكيل السلطة عبر عملية تهكمية خبيثة في المعيش اليومي.

يغدو الحمار- في ضوء هذه الرؤية- "مقاوماً تخيلياً"، يجمع في نصه الدلالي بين أبعاد السخرية والفلسفة الاجتماعية والنقد الأيديولوجي، بحيث يُمكن المتلقي من ممارسة دور "المؤول" الذي يشارك في إنتاج المعنى. كما يتوافق هذا الطرح مع ما أشار إليه شعيب حليفي حين قال: «لا يمكن للرمز إلا أن يكون فاعلاً في التاريخ الثقافي، يفضح ويتهاهى، ويقاوم ويُعاد إنتاجه»²⁵.

وهكذا، نلاحظ أنّ الرمز الحماري، في حدّ ذاته النقدية، ينسج علاقة جديدة بين الأدب والمجتمع، بين اللغة والسلطة، وبين التخيل والحقيقة، ليغدو بمثابة «حقل دلالي متمدّد» يفرض الانصهار في الأنساق الجاهزة، ويصرّ على استعادة الهامش وإعلائه إلى مرتبة المركز.

3. المحور الثالث: إمكانات التوظيف التربوي والثقافي للرمز الحيواني في ضوء المنظور التداولي

انطلاقاً من مسار البحث الذي انتهجه في هذه الدراسة، أجّد من الضروري توسيع دائرة التحليل، للانتقال من الرؤية النصية الخالصة إلى استكشاف الإمكانات التربوية والثقافية التي يتيحها الرمز الحيواني، وعلى رأسه الحمار، في ضوء المنظور التداولي. فليست غايتي من هذا البحث الوقوف عند حدود التوصيف البلاغي أو التفكيك الدلالي فقط، بل أهداف إلى مسألة قدرة الرمز على أداء أدوار تعليمية وثقافية أعمق، تتجاوز حدود النصوص الأدبية إلى فضاءات التعلم والتكوين الفكري.

وفي هذا السياق، يتجه اهتمامي كباحث إلى تقصي أبعاد الرمز الحيواني بوصفه وسيلة حجاجية يمكن تفعيلها داخل الحقل التربوي والثقافي، لما له من قدرة على تنمية مهارات التفكير النقدي لدى المتعلم، وفتح أفق تأويلي يسمح له بتفكيك الخطابات المهيمنة، وإعادة بناء المعنى وفق منظورات متعددة. ومن هنا، يأتي هذا المحور كمسعى منهجي لتحليل كيفية توظيف رمزية الحمار في ترسيخ الوعي النقدي، وتعزيز العلاقة الجدلية بين التراث والحداثة، داخل الصفوف الدراسية، وفي فضاءات النقاش الثقافي الأوسع.

أ. البعد البيداغوجي: الرمز في خدمة بناء التفكير النقدي

إنّ استثمار الرمز الحيواني، وفي طليعته الحمار، في الفضاء التربوي يُعدّ تجسيداً واعياً لرؤية تعليمية حديثة، تسعى إلى تجاوز التلقين السطحي نحو إرساء مقاربات نقدية تحليلية، تحقّق المتعلّم على إعمال العقل، وتدريبه على التفكير التأويلي المتعدد الأبعاد. فكما يرى نبييل راغب، «الأدب الساخر لا يقتصر على إضحاك القارئ، بل يثير فيه أسئلة وجودية، ويكشف له تناقضات المجتمع في قالب تهكمي خلاق»²⁶.

إنّ إدراج الرمز في الممارسات الصفية ليس مجرد زخرفة بلاغية، بل هو «وسيط تربوي» يُفعل آليات المقارنة، ويفتح أفق القراءة النقدية، ويحوّل المتعلّم من مستهلك للمعرفة إلى منتج للمعنى. وهنا، يُصبح الحمار، بما يحمله من دلالات مركبة، بمثابة «مرآة تربوية» عاكسة لأزمات المجتمع وأسلته المسكوت عنها.

كما يشيّر عبد الحميد شاكر إلى أنّ السخرية، في جوهرها، «فعلٌ مقاومة معرفية ضدّ النزعات التبسيطية في الفكر والسلوك»²⁷، ما يجعل من الرمز الحماري وسيلةً لتربية «العقل النقدي» القادر على تفكيك الخطابات المتداولة، وإعادة تأويل الظواهر الاجتماعية بمنظور أكثر استقلالية وحرية.

في هذا الإطار، يمكن توظيف الحمار تربوياً عبر ورشات أدبية تحليلية، نصوص درامية هادفة، أو محاكاة إبداعية تُحفز المتعلمين على إنتاج نصوص بديلة تتجاوز التلقي السلبي. إن نصوص أحمد رضا حوحو في «مع حمار الحكيم»، حيث ينتقد الانحلال الاجتماعي والحلول الزائفة، تُقدم نموذجاً حثاً لأشراك المتعلم في تحليل القيم المجتمعية ونقدِها، كما في قوله: «لقد زاد الطين بلة ذلك الانحلال الاجتماعي الذي جره زواج بعض رجالكم من الأجنبية»²⁸، ما يبرز قوة الرمز كمضخة لتمكين الطالب من التعبير الحر المسؤول.

إن دمج الرمز الحيواني في بيداغوجيا النقد يُساهم في بناء هوية ثقافية أصيلة، ويحفز على تنمية التفكير التأملية القادر على إنتاج المعنى، بدلاً من استهلاكه بصورة آلية. وهذا ما ينسجم تماماً مع ما أشار إليه عبد الرحمن شبان حين قال: «رضا حوحو ينظر إلى كل ما تقع عليه عينه بروح نقدية»، في دلالة على مركزية النقد كآلية لفهم الذات والعالم²⁹ وهكذا، يتحول الرمز من كونه عنصراً جمالياً إلى أداة بيداغوجية استراتيجية، تعيد صياغة العلاقة بين الطالب والمعرفة، وتؤسس لفضاء تعليمي حواري، قائم على الإبداع، التفاعل، والوعي النقدي.

ب. البعد الثقافي: الرمز كجسر بين التراث والمعاصرة

إن الرمز الحيواني، وفي طبيعته الحمار، يتجاوز في الخطاب الأدبي العربي كونه مجرد حيلة بلاغية عابرة، ليغدو «جسراً تداولياً» نابضاً بالحياة، يصل بين الماضي البعيد وتطلعات الحاضر، ويؤسس لحوار مفتوح بين الذاكرة الجماعية والوعي النقدي المعاصر.

ففي التراث العربي الكلاسيكي، حُمِلَ الحمار دلالاتٍ سلبية، حيث اقترن بالغباء والبلاهة، كما يورد ابن منظور في قوله: «سُحِرْتُ منه، هُزْتُ به... وسُحرة وسُحرة: الضحكة، ورجل سُحرة: يسخر من الناس»³⁰. هذه الدلالة التقليدية، وإن بدت سطحية، تحمل في عمقها تمثلاً ثقافياً معقداً للصراع بين المركز والهامش، بين من يملك سلطة الخطاب ومن يُستبعد منه.

ومع تحولات الخطاب الأدبي في القرن العشرين، خصوصاً مع الأدب الجزائري ما بعد الاستعمار، شهد الرمز الحماري تحرراً من قيد الصورة النمطية، ليصبح «سلاحاً معرفياً» يُعيد بناء الحكاية، ويخلخل المقولات المهيمنة. وفي هذا الإطار، يرى عبد المالك مرتاض أن «السخرية، وإن بدت سطحية، فهي في حقيقتها تهكم معنوي شديد اللدغ، يطال بعمقه أعماق البنى الاجتماعية والسياسية»³¹، وهو ما يمنح الحمار وظيفة ثقافية مزدوجة: تارة كناقيد صامتة، وتارة كصوتٍ صاخبٍ ينطق بأوجاع الهامش.

إن هذا التجدد في الرؤية، لا ينفصل عن تحول الخيال السردية، كما يؤكد شعيب حليفي في قوله: «الخيال السردية ليس مجرد إعادة إنتاج للتراث، بل هو إعادة تموضع لهذا التراث في صلب وعي ثقافي متجدد»³². وهكذا، يُعيد الرمز الحماري تشكيل صورة الوعي الجمعي، ويحفز المتلقي على التفكير النقدي، ويستدعي في الوقت نفسه التراكبات الثقافية والرمزية في ذهن القارئ العربي.

إن استحضار رمزية الحمار اليوم، لا يقتصر على كونه أداة للتندر أو الهزل، بل هو إعلان عن موقف ثقافي ضد الابتذال، وضد تزييف الوعي الجمعي، كما أشار إليه الدكتور أحمد مختار عمر بقوله: «اللغة ليست وسيلة نقل جامدة، بل هي أداة إبداع مستمر، وقدرة على توليد المعاني وفق مقتضيات المقام»³³. بهذا المنظور، يغدو الرمز الحماري قدرةً خلاقةً على استدعاء التراث وتفكيك الحاضر، في آنٍ معاً، بما يتيح للمتلقي فضاءً مفتوحاً للتأويل، ويكسر أحادية القراءة المغلقة.

وهكذا، تتحول «أيقونة الحمار» إلى جسر ثقافي حقيقي، يجمع بين الأصالة والحداثة، ويجسد جدلية التواصل والانقطاع في الثقافة العربية. إنه حضور نقدي حي، ومُجَلَّص خصب لتأملاتنا حول الهوية، السلطة، والتاريخ، وكل ما ينطوي عليه من أسئلة وجودية تتجدد مع كل قراءة..

الخاتمة

إن رمز الحمار، في رحلته الطويلة بين النصوص والتراث والخطابات المعاصرة، لم يبق كائنًا صامتًا على هامش الحكاية، بل صار صرخة مكتومة في قلب الصخب، يعبر عن وعي خفي يرفض الاستلاب ويرنو إلى التحرر. لقد

تحول من مجرد صورة ساهرة إلى مرآة صقيلة تعكس تناقضاتنا الاجتماعية، وتُعزّي هشاشة تصوّراتنا، وتُوقظ فينا جرأة السؤال: من نكون حين نضحك؟ وماذا نخفي حين نتهكم؟ يخرج الحمار في هذا الأفق من قصص التهكم ليتحول إلى أيقونة فكرية مقاومة، تنقب في أعماق الهوية، وتزعزع الخطابات السلطوية، وتفتح فضاءً تأويليًا لا ينتهي. فهو لم يعد رمزًا للغباء أو السذاجة، بل أصبح درسًا حيًا في الصبر، والحكمة، والفطنة التي لا تقول كل شيء، لكنها تلمح بما يكفي لإحداث زلزال صامت في الوعي الجمعي. إن استعادة هذا الرمز اليوم لا تعني استدعاء الماضي بقدر ما تعني تجاوز الحاضر نحو أفق نقدي أرحب، حيث يتحول الرمز إلى جسر حيوي يربط بين عمق التراث وأستلة المستقبل. إنه دعوة صريحة لبناء إنسان جديد، قارئ لا يكتفي بتلقي النص، بل يشترك معه، يحاكمه، ويساهم في إعادة خلقه، حاملًا هم التغيير لا مجرد متعة القراءة. وبظل الحمار - برمزته المركبة - شاهدًا صامتًا على حماقاتنا، ورفيقًا متمردًا في درب البحث عن المعنى، وصوتًا جانبيًا يتهكم، ولكنه في عمقه يعلمنا: «أن نسخر كي نفهم، وأن نفهم كي لا نبقي عبداً للسطح. الإحالات:

- 1 يوسف أسعد داغر، مصادر الدراسة الأدبية، ج 2، منشورات الجامعة اللبنانية، بيروت، 1983، ص 56.
- 2 شعيب حليفي، الرحلة في الأدب العربي: التجنس وآليات الكتابة وخطاب المتخيل، دار الأمان، الرباط، 2004، ص 112.
- 3 أوفيد، التحولات، ترجمة: عادل زعتر، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، 1992، ص 45.
- 4ت. س. إليوت، مقالة حول الشعر والنقد، ترجمة: جبرا إبراهيم جبرا، دار الآداب، بيروت، 1978، ص 94.
- 5عبد المالك مرتاض، فنون النثر الأدبي في الجزائر (1954-1931)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983، ص 384.
- 6ميشال فوكو، جينالوجيا المعرفة، ترجمة: عبد السلام بنعبد العالي، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، 2008، ص 42.
- 7تيفيان تودوروف، مقولات السرد الأدبي، ترجمة: الحسن شعبان وفؤاد صفا، اتحاد كتاب المغرب، الدار البيضاء، 1988، ص 31.
- 8نصيرة علاك، "الخطاب النقدي وصناعوه في وجهة الحجاج النقدي"، مجلة قضايا الأدب، العدد 4، المجلد 2، 2012، ص 34.
- 9عبد المالك مرتاض، فنون النثر الأدبي في الجزائر (1954-1931)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983، ص 384.
- 10المرجع نفسه، ص 385.
- 11ميشال فوكو، جينالوجيا المعرفة، ترجمة: عبد السلام بنعبد العالي، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، 2008، ص 42.
- 12نصيرة علاك، "الخطاب النقدي وصناعوه في وجهة الحجاج النقدي"، مجلة قضايا الأدب، العدد 4، المجلد 2، 2012، ص 34.
- 13المرجع نفسه، ص 34.
- 14عبد الحميد شاكر، الفكاهة والضحك: رؤية جديدة، سلسلة عالم المعرفة، العدد 289، 2003، ص 51.
- 15نصيرة علاك، "الخطاب النقدي وصناعوه في وجهة الحجاج النقدي"، مجلة قضايا الأدب، العدد 4، المجلد 2، 2012، ص 32.
- 16عبد الحميد شاكر، الفكاهة والضحك: رؤية جديدة، سلسلة عالم المعرفة، العدد 289، 2003، ص 51.
- 17عبد المالك مرتاض، فنون النثر الأدبي في الجزائر (1954-1931)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983، ص 384.
- 18ميشال فوكو، جينالوجيا المعرفة، ترجمة: عبد السلام بنعبد العالي، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، 2008، ص 42.
- 19أمبرتو إيكو، التأويل بين السيميائيات والتفكيكية، ترجمة: سعيد بنكراد، منشورات الزمن، الرباط، 2008، ص 8.
- 20شعيب حليفي، الرحلة في الأدب العربي: التجنس، آليات الكتابة، خطاب المتخيل، دار الأمان، الرباط، 2004، ص 79.
- 21عبد المالك مرتاض، فنون النثر الأدبي في الجزائر (1954-1931)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983، ص 384.
- 22شعيب حليفي، الرحلة في الأدب العربي: التجنس، آليات الكتابة، خطاب المتخيل، منشورات الاختلاف، الجزائر، 2006، ص 215.
- 23ثيف خوري، الدراسة الأدبية، بيروت، دار المكشوف، 1962، ص 73.
- 24ميشال فوكو، جينالوجيا المعرفة، ترجمة: عبد السلام بنعبد العالي، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، 2008، ص 42.
- 25شعيب حليفي، المرجع نفسه، ص 219.
- 26نبيل راغب، الأدب الساخر، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1998، ص 45.

- 27 عبد الحميد شاكر، الفكاهة والضحك: رؤية جديدة، سلسلة عالم المعرفة، العدد 289، 2003، ص 51.
- 28 أحمد رضا حوحو، مع حمار الحكيم، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982، ص 48.
- 29 عبد الرحمن شيبان، مقدمة في: أحمد رضا حوحو، مع حمار الحكيم، ص 8.
- 30 ابن منظور، لسان العرب، ج 4، ص 353، بيروت: دار صادر، 1996.
- 31 عبد المالك مرتاض، فنون النثر الأدبي في الجزائر (1931-1954)، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، 1983، ص 384.
- 32 شعيب حليفي، خطاب المتخيل، منشورات الزمن، الدار البيضاء، 2004، ص 112.
- 33 أحمد مختار عمر، العربية الصحيحة: دليل الكاتب والمحرر والطالب، القاهرة: عالم الكتب، 2003، ص 49.

قائمة المراجع

1. ابن منظور، لسان العرب، ج 4، بيروت: دار صادر، 1996.
2. أحمد رضا حوحو، مع حمار الحكيم، الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1982.
3. أحمد مختار عمر، العربية الصحيحة: دليل الكاتب والمحرر والطالب، القاهرة: عالم الكتب، 2003.
4. أوفيد، التحولات، ترجمة: عادل زعيتر، القاهرة: الهيئة العامة للكتاب، 1992.
5. أمبرتو إيكو، التأويل بين السيميائيات والتفكيكية، ترجمة: سعيد بنكراد، الرباط: منشورات الزمن، 2008.
6. ت. س. إليوت، مقالة حول الشعر والنقد، ترجمة: جبرا إبراهيم جبرا، بيروت: دار الآداب، 1978.
7. تزفيتان تودوروف، مقولات السرد الأدبي، ترجمة: الحسن شعبان وفؤاد صفا، الدار البيضاء: اتحاد كتاب المغرب، 1988.
8. رثيف خوري، الدراسة الأدبية، بيروت: دار المكشوف، 1962.
9. شعيب حليفي، الرحلة في الأدب العربي: التجنس، آليات الكتابة، خطاب المتخيل، الرباط: دار الأمان، 2004.
10. شعيب حليفي، خطاب المتخيل، الدار البيضاء: منشورات الزمن، 2004.
11. عبد الحميد شاكر، الفكاهة والضحك: رؤية جديدة، سلسلة عالم المعرفة، العدد 289، الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 2003.
12. عبد الرحمن شيبان، مقدمة في: أحمد رضا حوحو، مع حمار الحكيم، الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1982.
13. عبد المالك مرتاض، فنون النثر الأدبي في الجزائر (1931-1954)، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، 1983.
14. عبد السلام بنعبد العالي (مترجم)، ميشال فوكو، جينالوجيا المعرفة، الدار البيضاء: دار توفيق للنشر، 2008.
15. عايدة أديب بامية، تطور الأدب القصصي الجزائري (1925-1974)، دمشق: منشورات اتحاد الكتاب العرب، 1998.
16. محمد الصالح خرفي، المدخل إلى الأدب الجزائري الحديث، الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1983.
17. نبيل راغب، الأدب الساخر، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1998.
18. نصيرة علاك، "الخطاب النقدي وصانعه في وجهة الحجاج النقدي"، مجلة قضايا الأدب، العدد 4، المجلد 2، 2012.
19. يوسف أسعد داغر، مصادر الدراسة الأدبية، ج 2، بيروت: منشورات الجامعة اللبنانية، 1983.